

تعليمية النص الأدبي في الجزائر مستوى النهائي نموذجاً

د. محمد ملياني*

الملخص:

تحتاج عملية تدريس النص الأدبي وتحليله في الطور الثانوي إلى إعادة النظر في الكيفية والتقنية والهدف بنوعيه الخاص والعام، وذلك في ضوء المتغيرات المتعددة التي يعرفها العالم اليوم بغية ربطها بالحاضر والراهن، ونسعى من خلال هذه المداخلة إلى طرح جملة من الانشغالات في هذا المجال، كيف نفهم النص الأدبي؟ وكيف نعالجه مع المتعلمين؟ وكيف نقف على جمالياته؟ ومتى يتحقق الفهم والتذوق والمتعة؟

Abstract

It is commonplace to state that teaching and analyzing a secondary school literary text requires a thoughtful examination and reconsideration of a couple of pertinent aspects including : method, technique and objective . This is mainly due to the divergent changes that are taking place so that one can keep up with the modern world . In pursuit of this aim , the present study seeks to examine and cast light on a variety of concerns related to this subject matter . To this end , this study is an attempt to answer the following questions : how can we understand a literary text ? how can we treat and analyze it with the learners ? to what extent can we approach the literary text aesthetically ? and when understanding , taste and pleasure are fulfilled ?

تسعى المنظومة التربوية باستمرار إلى تقويم ذاتها، وتصحيح خطواتها بالمراجعة والإضافة والتصحيح، كما تهدف أيضا إلى تكوين الفرد تكويناً واعياً وواعداً يتمشى ومتطلبات العصر الحديث من خلال إكسابه خبرات ومهارات في مجالات متعددة، ولإنجاح هذا المشروع الواعد عقدت عدة ملتقيات وطنية وجهوية تناولت إشكالات العملية التعليمية التي تهتم منهجنا التربوي والتعليمي بكل أطواره.

وفي هذه المداخلة لن أسترجع الإشكالات التي نوقشت على مدار فترات من تاريخ المنظومة التربوية، لكن يهمني أن أتناول ما يتعلق بتعليمية النص الأدبي في المستوى النهائي.

ولعل أهم ما ينبغي التركيز عليه هو طرق وكيفيات تدريس النص الأدبي بوصفه فعالية كتابية، ينضوي تحتها كل من الباحث والمتلقي، وبحكم أن تعليمية النص الأدبي تحتاج إلى إعادة النظر في ظل منظومة معقدة من التحديات التي تفرضها الحداثة الغربية، حتى أصبحت طموحات المواكبة والخروج من دائرة الاختناق بحثاً عن البديل الذي يحقق الاستمرارية والطمأنينة حضارياً واجتماعياً ومعرفياً وتربوياً.

لقد أدت المتغيرات المتعددة في الوقت الراهن إلى تغير طرق وكيفيات معالجة النص الأدبي، وفي خضم هذا التحول الهائل، كيف يمكننا تدريس النص؟ وكيف نحلله؟ وكيف نبني العلاقة التي تحتفي بمحاورة النص ظاهراً وباطناً؟ وبأية كيفية نحقق المتعة واللذة، ونصل إلى الفهم؟

* د. محمد ملياني، كلية الأدب والفنون، جامعة وهران 1.

ولتحقيق المهارات المرجوة من تعليمية النص الأدبي كان لزاما علينا أن ندخله من زوايا متعددة، بعيدا عن تلك الدراسات والمعالجات الكلاسيكية العقيمة التي تنهض على كفاءات جاهزة خطواتها ومراحلها، الأمر الذي أدى إلى إحداث قطيعة شبه تامة بين النص والمتعلم، وانعدام التفاعل القائم أساسا على الفهم والتذوق.

وهذه النمطية هي المسؤول الأول عن قتل مبادرات الأستاذ، ومشاركة التلميذ وفعاليته في استثمار إمكانات النص ومجالاته الفسيحة، وأصفي شاهد نقدمه دليلا في هذا المقام تلك النماذج التحليلية المرفقة بكتاب¹ البرنامج بوصفها نموذجا رسميا معتمدا في تحليل النص في المؤسسات التربوية التي ظلت تقترح نفسها كنمط واحد لا يمكن استبداله مهما كان نوع النص، وتوجهه وعصره، ومن ثم فإن كل محاولة للخروج عن هذه الرتابة غير محمودة خوفا من عدم الانسجام مع النمطية المطلوبة، وخاصة في الامتحانات الرسمية كالبيكالوريا.

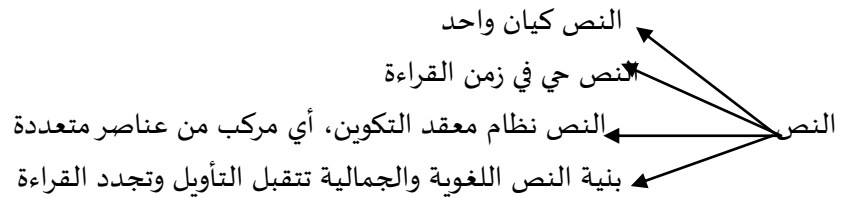
ومن الضروري أن نشير إلى أنّ النص الأدبي نظام معقد التكوين²، ينهض على مجموعة من الخصائص المميزة له، ويمكن أن نجعلها فغيما يأتي:

1- يعد النص النموذج الأول والأقوى للغة، بحيث يمكن للمتعلم أن يتعلمها أساسا من النص، ومن ثم يفهم الدلالة الحقيقية للقاعدة اللغوية.

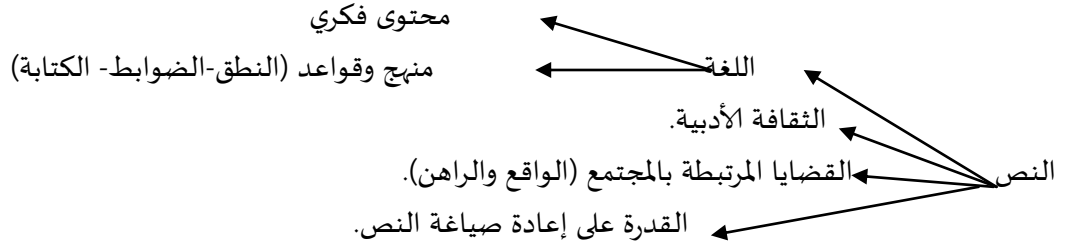
2- لا يكون النص مثيرا ومهما إذا ابتعد عن الراهن والواقع، لأن غايتنا من معالجة النص إيجاد تلك العلاقة التي تربطه بانشغالات واهتمامات تفكيرنا الراهن من خلال التحليل والتأويل.

3- إنّ النص يحى من جديد مع كل قراءة جديدة، لأن النص إذا ألزمناه بمعنى واحد وبنية واحدة ثابتة، فإننا نوقف عطائه، وندفعه إلى الموت، ونبقى نحن خارج النص، وقد لخص هذه الفكرة ستيفان فونتين (STEPHANE FONTAINE) في قوله: "لتحليل النص هدفا مزدوجا: التمكين من الفهم الأفضل للنص من تقسيم أحسن للمعنى، والتمكين من التعبير كتابيا عن فهمك للنص بطريقة متماسكة"³. ويبقى النص إذن وسيلة وهدفا في آن واحد لاكتساب اللغة وآليات بناء النصوص.

وللتوضيح أكثر، نستعين بهذه الخطاطة:



ولكي نتأكد من أهمية النص داخل بنية الفعل التعليمي بشكل عام نذكر أن التعليم لا يتأتى إلا من خلال اكتساب اللغة، ووسيلتها الأساسية النص. فهناك إذن تداخل في طبيعة حضور النص داخل الفعل التعليمي: وسيلة متعددة الأهداف، أي أنه وسيلة تعليمية وبيداغوجية، وهو أيضا هدف، لأن كفاءة إنتاجه هي الهدف الحقيقي من تعلم اللغة⁴. وطلبا لبعض التوضيح، نستعين بهذا التمثيل البياني:



والنص لا تختصر فيه اللغة في شكل أداة بريئة أو محايدة، كما هو الشأن في النصوص غير الأدبية، بل إن مضمون النص الأدبي متحد بقوة بنائه اللغوي، الأمر الذي يسمح باستخدامه وسيلة لتعلم اللغة وقوانينها، ومن هنا فالنص هو المعيار للاستخدام الأمثل لنظام اللغة.⁵

والضرورة المنهجية تفرض علينا أن نقف على أهم الأسباب التي أدت إلى فشل تعليمية النص الأدبي في التعليم الثاني، ويمكن أن نجعلها فيما يأتي:

1- غياب الأهداف المحددة بطريقة علمية، والمرتبطة بتدريس النص الأدبي، وتلخصت في عبارات عامة ومتداولة، ولا تبتعد كثيرا عن الأهداف العامة، وهذا ما يؤدي إلى تكريس نمط واحد من المقاربة ومن التحليل، في حين تحدد الأهداف الدقيقة بطريقة علمية في ضوء القدرات الأصلية التي يتطلبها تكوين الكفاءة التوصلية (compétence communicative) والكفاءة اللغوية (compétence linguistique)، والكفاءة التحليلية (compétence analytique).

2- الطريقة المتبعة في تحليل النص الأدبي، وعدم الوعي بالمهارات اللازمة لتحقيق الأهداف، إذ تحولت إلى قالب أو نسخة واحدة تصلح لأي نص، بحيث يكفي أن يحفظ النموذج (Model) ويغير عنوان النص وغرضه والمؤلف، لتكون الإجابة صحيحة، وفي هذه الحالة يتحول المتعلم إلى آلة مبرمجة بلا تفكير أو أدنى تأمل، ويندرج هذا العمل في إطار تكريس السطحية في قراءة النصوص وعدم الاهتمام بعنصر الدلالة.⁶

3- تشويش ذهن المتعلم، وذلك بدفعه إلى شرح الألفاظ مفردة، الأمر الذي يحدث شرخا بين بنية النص الكلية والفهم السليم القائم على التدوق.

4- استخراج الأفكار، وعادة ما تكون نثر الأبيات الشعرية وصياغتها بكيفية تتأرجح بين المقبول والمرفوض إما معنى أو صياغة.

5- تحديد قالب النص أو جنسه.

6- دراسة الأفكار من حيث السهولة والصعوبة، والعمق والسطحية، والتسلسل.

7- دراسة العاطفة من حيث الصدق وعدمه.

8- دراسة الأسلوب.

9- استخراج الأحكام والقيم من النص المتعلقة بالبيئة أو بصاحب النص.

وهكذا يغدو الصواب في دراسة النص هو مجرد تكرار للاستنتاجات البلاغية والأحكام التي لا تعرف تبديلا ولا نهاية، أما القراءة (النقد والتحليل) فغائبة تماما، بل إن التلميذ مقصى ومغيب بطريقة تعسفية، لأننا لم نعد نطلب منه أكثر من تكرار تلك الأحكام واستنتاج ركام الصور والمحسنات، وبهذا يتم قتل الإبداع وروح الاجتهاد والتأويل والاستنتاج فيه، وهي أهم ما أفرغ دراسة النص من محتواها وأبعدها عن أهدافها الدقيقة. فالمتعلم لا يباشر النص انطلاقا من تصوره وفهمه وقراءته الذاتية، بل يستجيب آليا لتطبيق النموذج الذي بُرمج على إتباعه.

ويقع كل هذا في غياب تام للفعالية الكتابية وتفاعلاتها التي تشكل أساس التحليل الأدبي، كأن نطلب من المتعلم أن ينتج نصاً جديداً حول النص، أي حملة على التعبير منهجياً عن رؤية وفهم معين يُقترح للنص، وهذا يعني أننا نكسب التلميذ القدرة على تمثيل أو إنتاج النص الأدبي.

وينضاف إلى هذا كله تركيز التوجهات التعليمية الرسمية على المظهر الدلالي، دون المظهر التركيبي، إذ لا يجوز دراسة النص من منطلق تركيبي للوقوف على الشحنات الدلالية التي توفرها العلاقات النحوية.

ولتحقيق الأهداف والمهارات المرجوة من تعليمية النص الأدبي بوصفه معقداً ورمزياً كان لزاماً علينا أن نتخلص من قيود الطريقة التقليدية المغلقة، وتلك الدراسات والمعالجات الكلاسيكية العقيمة التي تنهض على كفايات جاهزة ونموذجية، ولندخله بمعارف علمية متعددة لاكتشاف مخزونه، لأن التحليل قراءة مفتوحة.

ووفق هذا الفهم فإن دراسة النص الأدبي ترفض المنهج الواحد أو المستهلك والمتكرر، وتطلب منهجاً جديداً ووسائل أكثر نجاعة للتمكين من فهم المستوى العميق للنص، ولا ننطلق في مباشرة النص من مدخل واحد، لأن بنيته معقدة وتتركب من عناصر متعددة وشديدة التداخل فيما بينها، وأصبح من الضروري عند معالجته من اعتباره بنية مركبة وليست بسيطة تستجيب لأدوات محددة ووفق مراحل نمطية.

وهناك أسباب أخرى ساعدت على اتساع الهوة بين التلميذ والنصوص الأدبية، نذكر منها:

- 1- سوء التوجيه، وعدم مراعاة رغبات التلاميذ المتفوقين الناتج عن عدم وعي الأولياء بأهمية الشعبة الأدبية.
 - 2- توجيه المتخلفين والمحدودين إلى الشعبة الأدبية، وذلك في غياب الرغبة والميول.
 - 3- غياب الموجه الواعي داخل المؤسسة التعليمية والأسرة الناتج -غالبا- عن الأمية أو محدودية مستوى التعليم.
 - 4- انقطاع الصلة بين الأسرة والثانوية، وغياب التنسيق الذي من شأنه أن يراعي قدرات التلاميذ ويفجر طاقاتهم.
- ومن هذا المنطلق، من المشروع التساؤل في هذا المقام، كيف نطالب التلاميذ بدراسة النص الأدبي والتفاعل معه والتفوق فيه في غياب معارف علمية متعددة، وبمنأى عن تلك الدراسات الجديدة التي عالجت النص من مداخل متعددة، ووقفت على خصائصه، بحوث البنيوية والأسلوبية والألسنية والسميائية، ونظرية جماليات التلقي، وكلها نظرات فلسفية في النقد الأدبي أسهمت في استحداث كفايات وإجراءات متنوعة في تحليل وفهم وتذوق النصوص؟
- وتبقى ضرورة النهوض بتحليل النص الأدبي مهمة وواجبة، وعلى الباحثين القيام بهذا العمل. والضغط من مواقعهم العلمية والأدبية والثقافية حتى يتمكن من تكوين تلميذ متذوق للأدب، وقارئ شغوف بالكتاب، وربما منتج للأدب.
- ولتحقيق هذه الغاية في ظل التحول العميق الذي شهدته مختلف المجالات، ينبغي أن تتوافر مجموعة من الشروط ونجملها في النقاط الآتية:

- 1- التوجيه السليم لتلاميذنا عبر الفروع المختلفة ويكون هذا حسب الرغبة والقدرات.
- 2- ضرورة إشراك المتعلم في شرح النص، وتزويده بمعارف علمية تسهل له مهمة البحث والاكتشاف.
- 3 - أن يكون المعيار المطبق في تحليل النصوص هو محتواها، انطلاقاً من البنى الفونولوجية وصولاً إلى البنى العميقة اعتماداً على العلاقات التركيبية.
- 4- ضرورة تدريس النحو العربي من خلال نصوص الأدب، وهو ما يسمى "بنحو النص" لا مجرد النحو العربي المنطقي المتعارف عليه، وهذا للمزيد من التفاعل والتعايش مع النصوص وسبر أغوارها وإتاحة الفرصة لعوامل تذوقها.
- 5- الاستعانة بالمناهج والمعارف العلمية الحديثة في تحليل النصوص، وتمكين التلميذ من معرفتها وتطبيقها.
- 6- النهوض بفلسفة التعليم وتوفير أدواته وأماكنه.
- 7- المعلم المؤهل أكاديمياً ومهنياً: لأنه أساس العملية التربوية.
- 8- جعل التلميذ عنصراً فاعلاً منفعلاً في العملية التعليمية

هوامش البحث:

- 1- ينظر كتاب المختار في الأدب والقراءة، السنة الثالثة ثانوي، المعهد التربوي الوطني، الجزائر 1989/1990.
- 2- قضايا في تعليم اللغة العربية وتدريسها: حسن عبد الباري عصر، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية 1999، ص152.
- 3- Pour une littérature difinition de l'analyse <http://www.lettres.net/pdf/methodes/definir-analyse-litt.pdf>.
- 4- voir Dictionnaire de linguistique : Jean Dubois et autres. Larousse, 1973. p: 394-388.
- 5- Stéphane Fontaine : Pour une définition de l'analyse littéraire.
<http://www.lettres.net/pdf/methodes/definir-analyse-litt.pdf>.
- 6- ينظر الثقافة العربية في عصر المعلوماتية: د. نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001، ص 269.